فى منظار «الخفيف»

للأستاذ على الطنطاوى

لم يعلم أحد لِمَ لَمْ يكتب الصديق النبيل الأستاذ محمود الخفيف فى العدد الماضى من « الرسالة » ، ولم يعلم هو من الأمر إلا أنه فقد منظاره فجأة ، ثم وجده كما فقده فجأة ، لم يدر أين ذهب ولا كيف أتى ، ولم يعرف سرّ المسألة إلا أنا ، لأنى سرقت « المنظار » من جيبه لما زارنى فى « الرسالة » فى الأسبوع الماضى ، ورددته إلى جيبه لما مرّ بى أمس ، وقد كان عرض علىّ أن يعيرنيه لما رأى رغبتى فيه ، ولكنى خشيت (وسوء الظن عصمة) أن يفسده أو يصنع به شيئاً يمنعنى من الاستمتاع به ، كيلا أعود إلى طلبه منه ، فآثرت أن آخذه على حين غفلة منه لأستعمله صحيحاً غير فاسد ، ثم إن السرقة أخت الاغتصاب ؛ وقد نصّ (الشاعر) على أن :

من أطاق التماس شىء غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

والشعراء أئمة الأدب ، ولا يستطيع « مقلد » مثلى مخالفة نصوص « الأئمة » ... لذلك سرقت « المنظار » ، ولكنى لم أرَ به مثل تلك الصور الفنّية الكاملة التى كان يراها الأستاذ محمود ، وإنما رأيت ... اسمعوا ما ذا رأيت :

***

وضعت « المنظار» على عينى ، وخرجتُ به من الدار ، وكنت على موعد مع الأستاذ نهاد القاسم[1] لنزور جامع محمد على ، وسرت أنظر إلى بعيد ، فلم أخط خطوات حتى أحسست رجّة فى جسدى ، وألم فى ركبتى وقدمى ، وإذا أنا قد سقطت فى حفرة لم أنتبه لها .

وأقبل المارة يخرجوننى ويسألوننى كيف وقعت ؟ !

قلت : كما وقع الفلكى الذى كان ينظر فى النجوم ومسالكها ، ويدقّق فى سركاتها وسكناتها ، ويعمى عما تحت قدميه ، وكما (يسقط) الكاتب الذى يتكلم فى الفلسفات العليا ، ويغفل عن أدواء أمته وأمراضها ، والشاعر الذى يحلّق فى سماوات الخيال ، ويدع أمته تتمرغ فى حضيض الشقاء ...

وتركتهم يعجبون من هذا الكلام الذى حسبوه كلام مجنون ... وسرت حذراً ... أنظر حولى كيلا ألدغ مرتين من جحر واحد ، فأكون شرًّا من الحمار ، لأن الحمار إن سقط فى حفرة مرة ، يجتنبها فلا يسقط فيها أخرى ، والإنسان (الذى يؤمن به أخونا الأستاذ خلاف) يسقط فى الحفرة الواحدة خمسين مرة ، ثم لا يجتنبها ولا يبتعد عنها ...

ونظرت فى « المنظار » فلم أر فى وجهى ... إلا سوءات مكشوفة و « أوساخاً » ظاهرة ، وبلايا من هذه البلايا ... فكدت من غضبى أكسر هذا « المنظار » المحور الذى ينظر فيه الأستاذ محمود فيرى « زهرتىْ » الوزارة ، وبيصرغادة « الحمار الآخر » ؛ وأنظر أنا فلا أرى إلا الأوساخ والسوءات ، ورفعته عن عينى ، وأنعمت النظر... فإذا الذى أراه حقيقةٌ كنت أمرّ بها فلا أنتبه لها ، لتعودى عليها ، وتنبهت لها الآن لما ركبت على عينى « المنظار» ، وهى أن الطريق الذى أسلكه كل يوم من دارى إلى جسر الملك الصالح وأحسبه نزهاً جميلا ، قد فاض بالأقذار من الجانبين ، فمن هنا هؤلاء الناس من الرجال : الشيب والشبان ، والأولاد : البنات والصبيان ، والنساء أحياناً ... (حتى النساء !) يدعون جميعاً بيوت الطهارة وهى أمامهم : فيها الماء ، وعليها الحارس ، وفيها الستر والنظافة ، و « يقضون حاجتهم » على طول « الشطّ » أمام الناس ، ومن هناك البنات المصريات فى آخر الشارع ، والأولاد المصريون فى أوله ، يدعون جميعاً المدارس المصرية الطاهرة النظيفة ، ويقصدون هاتين المدرستين الإنكليزتين ، يفتحون أدمغتهم للانكليز وصنائعهم من أصحاب الأغراض والحاجات ، ليحققوا فيها أغراضهم ، و « يقضوا حاجتهم » ويجعلوها عشًّا لكل وباء وكل مرض ، يضعف الوطنية ، ويؤذى الدين . وإذا طهر الشط من أقذاره الكناس ، ورشاش (الدالين)[1] ، فلن يطهر البلد من أقذار هذه المدارس ، إلا أن تكنسها الحكومة من أرض مصر ، وتلقيها وأهلها فى البحر ...

وركبت الترام وأنا مغيظ مما رأيت محنق ، فرأيت و«المنظار» على عينى ، ما سلاّنى وسرّنى عنى ، رأيت أمامى وجهاً حلواً ، دقيق القسمات ، نظيفاً لم تنزل ساحته الأصباغ ، ولامسته يد

(١) المستشار الاستئناف فى دمشق وزميل فى البعثة القضائية فى مصر .

(١) أى الـ (دال — دال) : (D.D.T) .

التجميل ، ولكن جمّله ربه ، وصبغه بصبغته ... ومن أحسن من الله صبغة ؟ فيه عينان زرقاوان ، وفم متجمع مستدير ناضج الشفتين ، فوقه شعر أشقر ، لا هو بالطويل المسترسل ، ولا هو بالقصير المحلوق ، وسوالف ليست مقطوطة كسوالف الرجال ، ولا مطلقة كسوالف النساء ، على جسم قد غطته سراويل سابغة ، ورداء له أكمام طويلة ، تبرز منها يد بضّة ملفوفة ، ما تعرف أهي يد بنت مدلّلة ، أم يد غلام مترف ، والعمر في نحو الخامسة عشرة ، فجعلت أتساءل حائراً : هل هذا شاب أم فتاة ؟ وحاولت أن أجد علامة دالّة ، أو أمارة ظاهرة ، فعدمتُ العلامات ، وخفيت عني الأمارات ، وطالت حيرتي حتى لقد هممت أن أمدّ يدي فألتمس ... ومنعني أن أفعل أني استحييت وخفت العواقب ، وأن الشاب قام ، أو أن الفتاة قامت ، فنزل ، أو نزلت ، وكل راكب في الترام يتساءل مثل تساؤلي ، ويحار مثل حيرتي !

وركب مكانها (أومكانه) ، امرأة فرنجية كأنها من لطافتها ... (سيد قشطة) تجر وراءها ثلاثة : ولدين كالخنزيرين السمينين ، لا يعرف طولهما من عرضهما إلا بالقياس ، وعجيزة مثل كيس التبن ... وصلت هي إلى المقعد ، ولا تزال العجيزة تصعد السلّم ، ثم جلست بين الرجلين على طرف المقعد ، وهي تلهث كأنها قاطرة حلوان ... ثم اندفعت في المقعد فضغطت الرجلين ، فأدخلت واحداً في الزاوية من هنا ، وواحداً من هناك ، وأقعدت الخنزيرين (أي الولدين) على الركبتين ، وتنفست الصعداء بعد هذا الجهد ، فكانت نفخة مفاجئة أطارت جريدة كانت في يد الراكب أمامها ...

وأقبل الجابي (الكمسارى) وهو رجل أسمر طويل ، عبوس الوجه ، متين البناء ، له شاربان كشاربي مركب ، فقال لها :

— فلوس !

فمدت إليه يدها بثمانية مليمات ، كأنها تمدها إلى سائل ، فقال لها :

— هنا بريمو ، خمسة عشر مليما .

فرفعت إليه هذه الكرة المفلطحة التي تسمى في جغرافية جسمها (رأساً) ، ولوت شدقها ، وصعّرت خدها ، ومدت شفتها ، حتى صار وجهها مثل القرعة اليابسة ، وقالت :

— أنا ما بياطي ، أنا مش آهد كويس .

— خمسة عشر مليما يا مدام .

فغضبت ، وصاحت :

— انتي مسريين ما بسير لتيف أبداً ، بيتَمْ متوهش !

فأسرعت أنزع « النظار » لألعن أباها ، ومن جاء بها إلى مصر ، ولكني وجدت (الكمسارى) قد سبقني إلى هذه الكرمة ، ورأيته قد انقلبت عيناه في أمّ رأسه ، واصفر وجهه حتى صار كقشرة الليمونة ، وارتجفت شواربه ، ولكنه تماسك وثبت ، وصفّر فوقف[1] الترامَ ، وقال لها :

— لو كنت رجلا لرأيت ، ولكنك امرأة ، ونحن لا نمد أيدينا إلى النساء ، فتفضلي انزلي ...

وأكبرت نمله ، وقت أهنئه وأصافحه ، ولولا خشونة خدّه ، وأنها لا تطيب قبلته ، لوثبت عليه فقبلته ، وتمنيت أن يكون كل مصريّ مثله ، وحمدت للنظار ما أرانيه ، ولكن الفرصة لم تطل ، فقد فتح الباب ودخل منه سائل[2] كأنه في جسمه وفي عينيه بشار ابن برد ، عليه ثياب لو أن للقذارة (جائزة) عالية ، لنال بها الجائزة ، يغني بصوت تخاله — والعياذ بالله — صوت ثلاثة حمير تنهق معاً ، على نغمة (الجازبند) نهيقاً مقلوباً ، كأنه صراخ الجن في الأودية المسحورة ، أو نواح الردة في قعر الجحيم ، أو كأنه الموسيقى الفرنجية ... بشعر لا تفهم له وزناً ولا قافية ولا معنى ولا تجد فيه طرباً ولا متعة ولا لذة ، فكأنه شعر بشر فارس ...

فلما اقترب مني لم أجد أحسن من الفرار ، فنزلت من الترام عند الشارع الذي كان اسمه أيام الاحتلال « شارع مستشفى اللادى كرومر » ، وكنت أنا المصري الأصل ، الدمشقي المولد والبلد ، أتألم وأتول ما ذا يكون لهذه التسمية من ألم في نفوس المصريين أصلا ومولداً وبلداً ، وهي تذكرهم بأعدى عدو لهم ، وتمنّ عليهم بمستشفى أنشأته زوجته ببعض ما سرقت من مال مصر ، مع ما أصيبت به مصر على يد زوجها وقومه ، من ذهاب الأنفس والأموال ، ومن ضياع الحرية وهي أعز على الأبيّ من النفس والمال ، وأوثر أن نموت في العراء (إن لم يكن إلا هذا المستشفى) ، على أن نشفى فيه ، لأن شفاء أجسامنا فيه ، يمرض وطنيتنا ، بمحبة هذه (اللادى) وذكرها بالخير ، وعرفان الجميل

(١) وقفه ولا يقال أوقفه .

(٢) ولا يخلو الترام لحظة من سائل

لها . فلما تنبهت مصر ، وذهبت تخطب أهل الأرض من فوق منبر مجلس الأمن ، تعرفهم ظلم الإنكليز إياها ، وعدوانهم عليها ، رفع الشباب هذه اللوحة ووضعوا مكانها لوحة سمّوه فيها « شارع دنشواى » ، وأشهد لقد كانت تسمية عبقرية ، وكان ردًّا بارعاً ، وكان جواباً لا يصدر إلا عن إلهام ...

ووجهت « النظار » إلى هذه اللوحة الجديدة ، أمتع بها روحي ، وأنعش نفسي ، فلم أجدها ، ووجدت اللوحة القديمة قد جددت ، فسحت « النظار » ونظرت فلم أر غيرها ، فرفعته عن عيني ونظرت ، فإذا أنا أجد اللوحة القديمة قد جددت حقاً ...

لما ذا ؟ هل عادت أيام الاحتلال ؟ !

ورفعت « النظار » عن عيني لئلا أسقط في حفرة ، أو أصدم أحداً ، حتى دخلنا المسجد ، فقلت : أغمه لحظة ، علّي أرى في المسجد ما يسر ويفرح بعد تلك المحزنات ، وكانت الصلاة قد اقتربت ، والمسجد لبعده ، ولازدحام الساجد من حوله ، كأنه خالٍ فما فيه إلا أربعة صفوف ، ونظرت فرأيت ثلاث فتيات سوافر كسائر نساء مصر ، شعرهن يموج على أكتافهن ، وأذرعهن بارزات كلها من الكم الياباني (الجاپونيز) الذي يبدي ما تحت الإبط لكل ذي عينين ، والسيقان مكشوفات لا جوارب تصعد لسترها ، ولا ثوب ينزل لتغطيتها ، ومعهن أمهن تؤدي هذه الملأة ذات البرقع الذي لا يستر من الوجه إلا مداخل النفس من الأنف فقط ، ويظهر الباقي كله ... وأسرعت الأم وبناتها إلى حوض الماء يتوضأن ، ويمددن أرجلهن لغسلها ، فلا يبقى مستوراً إلا ... الذي لم يكشف ... ثم يقفن هكذا للصلاة .. وفي المسجد مشايخ ، رأوهن فلم يكلمهن أحد منهم ، والخطيب رآهن فلم يعرض لهن ، فنزعت « النظار » وأغمضت عينيّ ، وحاولت أن أنساهن وأتوجه إلى الصلاة ، فلم أستطع ، لأن صورتهن لا تزال (أقول الحق) أمام عيني . فإذا كن يلحقننا حتى إلى المسجد ، فكيف نفرُّ يا قوم منهن ؟ وكيف يصنع الشاب العزَب ليتقي إغراءهنّ ؟

ألم يخطر على بال أحد من العلماء ، والآباء ، هذا السؤال ؟ !

ورجعنا و « النظار » على عيني ، ولكنه أخذ يكذب ويشوّه الحقائق ، فيريني خياماً من القماش في أول شارع الخديوي اسماعيل ، وعليها لوحة تقول : إن هذه الخيام (إدارة تنظيم عمارة المدن) ...

فأقول : ينظمون عمارة المدن ، ولا يستطيعون عمارة حجرتين من اللبن والخشب ؟ هذا لا يمكن ... وأهم بطرح النظار ، ثم أذكر أن هذا ممكن جداً في الشرق !

أليس يأمر الناس بالتقوى من ليس تقياً ، ويدرّس البلاغة من ليس بليغاً ، ويقود الأمة من يحتاج إلى من يقوده ، ويعطي الأشياء فاقدها ، ويولي الأمور غير أهلها ؟ !

وتابع « النظار » الكذب ، حتى إذا وصل إلى دار المفوضية السورية ، وهي أفخم من أختيها : الأمريكية والروسية ! ! زاغ « النظار » عن كل ما في الدار ، واستقر على « عقد الإيجار » ، فأراني فيه رقم (٣٠٠) جنيه في الشهر ، ثم ذهب بي إلى دمشق ، فبصّرني بآلاف التلاميذ يزدحمون كل سنة على أبواب المدارس ، ثم يرتدون عنها لأنها لا تتسع لهم ، وليس عند الوزارة ما تستأجر به داراً جديدة ، لأن أجرة الدار (٣٠٠) جنيه في السنة ! ثم دار بي على المفوضيات السورية في آفاق الأرض ليريني ...

ولكني أغمضت عيني فلم أنظر ، لأن هذا كذب ظاهر ، ونحن أعقل من أن نؤثر الظاهر على الجواهر ، والتزاويق على الحقائق ، والخارجية على المعارف ، وثوب العرس على العروس ! ونحن أعقل من أن نشتري (كراقتة) بخمسة جنيهات ، ونمشي بلا سراويل !

وسرت ... فإذا « النظار » يريني « كذبة » أشنع وأبشع : إعلانات ، في كل مكان ، وكل شارع ، أن الإخوان المسلمين سيمثلون رواية الهجرة ، على مسرح الأزبكية ...

كذبة قطعاً ، وإلا فهل استحالت دعوة الإخوان ، وهجرة الرسول ، إلى مسرح وتياترو ؟ ومن يمثلون ؟ النبي والصديق وعلي ؟ أهذه آخرتها ؟

جمعية الشبان المسلمين ، مثّلت مع زوزو نبيل ، وسمّتها ممثلة المسرح الإسلامي ! وجماعة الإخوان تنزل الصحابة إلى تياترو الأزبكية . . فهل تنشر مجلة الأزهر صورة امرأة عارية لتكمل الرواية ؟ وهل يوضع في جامع الكيخيا أو كسترا أفرنجية ، وفي مسجد الحسين تخت شرق ؟ !

* * *

لا ... خذ « منظارك » يا أستاذ محمود ... حسبي ما رأيت !

(القاهرة) علي الطنطاوي